الباب الخامس

انتشار المسيحية بين مسيحيي إسبانيا

أدخل العرب الظافرون الإسلام في إسبانيا سنة ٧١١م، وفي سنة ١٥٢٠ أصدر فردناند وإيزابلا مرسوما يقضي بإلغاء الدين الإسلامي في جميع أرجاء البلاد. ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوروبية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة. على أنه يحمل بنا أن نمر مر الكرام على هذه الحياة وما تنطوي عليه من مدنية ورقي ونصر مؤزر في الفن والشعر، وفي العلم والفلسفة، وأن نوجه اهتمامنا إلى الحالة الدينية في إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي.

لما قدم المسلمون أول الأمر إلى إسبانيا حاملين دينهم، وجدوا المذهب الكاثوليكي قد استقر في هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآري. وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قرارا يقضي بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أي مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي، وأن ينفذوا القانون بالقوة على الخارجين عليه. وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وفي النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين والمراسيم الكنيسة والقرابين المقدسة إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد، وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذا راجحا في شئون الدولة[١]. وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإقرار الشئون المهمة في الدولة والمصادقة على انتخاب الملك، وادعت لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم. واتخذ القسيس من وراء هذه القوة التي

(١) Bauissin, P.22.

وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة في العدد في إسبانيا، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية[١].

وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدوهم مخلصين لهم ممل حل بهم من المظالم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت في أيديهم[٢].

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية، إذا ما قورنت بذلك التسامح الديني وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين. وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالإسلام في إسبانيا، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية والذين ورد ذكرهم في سنة ٦٩٣م[٣] قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقاء. كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى[٤]، يصاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت، متحولين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم[٥]، وبعد أن تحول هؤلاء الإسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغير لدينهم الجديد وانضموا هم وأولادهم إلى جماعة الصفا الذين عرفوا بالتقشف وشدة تمسكهم بالدين، ولم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والإهمال التي سادت الطبقة الأرستقراطية العربية[٦].

ويقول مؤرخو المسيحيين إن فضائل القوط القدماء قد انحطت في وقت الفتح

---

(١) Helferich, P.68.

(٢) المقري ج١ ص٢٨٠– ٢٩٢.

(٣) Baudissin. P.7.

(٤) Dozy, (2), tome ii. Pp. 45-6.

(٥) A. Müller. Vo0l. ii. P 463.

(٦) Dozy (2), tome, ii, pp. 44-6

العربي الإسلامي وفسحت الطريق إلى الفساد والخلاعة، حتى لقد ظهر الحكم الإسلامي كأنه عقاب قد نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوي واتجهوا نحو الرذيلة[١]. ولكن مثل هذا القول طالما يرد في التاريخ الكنسي على حين لا توجد هناك شواهد معاصرة تؤيد صحة هذا الرأي[٢].

بيد أنه يظهر لنا أن الأمور لم تستقم على مر الزمن، ذلك أنه لما اشترك الأساقفة المسيحيون في الثورات التي قامت في بلاط المسلمين في الوقت الذي أصبحت فيه الأبرشيات تمنح الأساقفة عن طريق المزاد، وعين الملحدون الذين يضمرون الإلحاد للكنيسة، وأصبح هؤلاء بدورهم يمنحون منصب القساوسة أشخاصا تنقصهم الكفاية والغيرة على مبادئ الدين المسيحي[٣]– إذا عرفنا هذا استطعنا أن نجزم بأن تحول المسيحيين عن دينهم لم يقتصر على أهل مقاطعة إلفيرة[٤]، بسبب ذلك الفساد الذي تطرق إليه نفوس رؤسائهم الروحيين[٥]. فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملائمة لحياتهم الدينية والدنيوية بدخولهم في حظيرة الإسلام.

ولو أن كتاب الكنيسة قد عنوا بتدوين هذه الأحداث، لوجدنا إسبانيا تقدم لنا من

---

(١) So St. Boniface (A.D. 745, Epist, Ixii). ٣

مثلما حدث للقبائل الأخرى في إسبانيا، وللقاطعات، وأشعب يرغنديا الذين ارتكبوا الكبائر بابتعادهم عن الرب، حتى لقد أراد القاضي الأعظم أن يحل بهم، على يد العرب، عقابه وانتقامه، بسبب ماارتكبوه من مآثم، وبسبب جهلهم بقانون الرب، (Migne: Patr. Lat., tom, Ixxxix, P.761). Eulogius. Lib. 30 وانتقلت إبان قوتهم (أي العرب) مقاليد إسبانيا إليهم، في الوقت الذي كنا نقوم بأعمالنا. (Migne: Patr: lat. Tom.cxv.P.761). ونظير ذلك ما ذكره ألفار Alvar (2) 18 سأحاول أن أختبر السوط الذي صب علينا لما ارتكبناه من آثام. إن جمعية آثامنا، أيها الأخوة، تكاسلنا، ودنسنا، وإفساد عاداتن؛ لذلك أسلمنا المولى الذي يؤثر العدل ويأمر وجهه بالإنصاف إلى هذا الوحش لتظل فريسة في يده (PP.531-2).

(٢) Dozy (3) tome, i.pp.15-20 Whishaw, pp.38.44.

(٣) Samson, PP. 337-8-381.

(٤) Dozy, (2), tomeii.P210.

(٥) اتهم أسقف إجيلا Egils، الذي أرسله البابا أدريان الأول إلى جنوب إسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقوم بعمل من شأنه أن يحول دون إطراد نفوذ الفكر الإسلامي، القسيسين الإسبان الذين عاشوا مع النساء اللاتي اتخذوهن سرارى لهم.(Helferich, P.83).

غير شك أمثلة صالحة عن رجال تحولوا عن المسيحية من أمثال Bodo، الذي كان شماسا في البلاط الفرنسي في عهد لويس التقى واعتنق اليهودية سنة ٨٣٨م لكي «يتمسك بأهداب شريعة الله، بتركه هذه الحياة الأثيمة كما يقول[١]. كذلك لا يبعد أن تكون البقية الباقية لهؤلاء القوط القدماء الذين دانوا بعقائد المذهب الآريوسي الذي ظهرت بعض آثار نهضته في الكنيسة الإسبانية قبيل الفتح العربي[٢]. قد ساعدت على حث الناس واستمالتهم لقبول هذا المذهب الجديد الذي تتفق العقيدة المسيحية فيه اتفاقا وثيقا مع العقيدة الآريوسية[٣].

وسنرى فيما بعد شواهد مماثلة تدلنا على مدى تحول أهل إسبانيا إلى هذا المذهب قبل الفتح العربي، والذي مهد السبيل لتحول أهل أوربا الغربية إلى الإسلام قبل الفتح العربي لبلاد الأندلس. ومن الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه تحول ثيودسكلوس Thiodisclus، ذلك الرجل الإغريقي الذي خلف القديس إيزيدور Isidore المتوفى سنة ٦٣٦م في منصب رئيس أساقفة إشبيلية. فقد اتهم بالإلحاد لقوله بأن المسيح لم يكن إلها باتحاده بالله وبروح القدس، وإنما كان ابن الله عن طريق التبني، لهذا قضى المجمع الديني الذمي بعزله عن منصبه وبحرمانه حقوقه الكنيسة، فلجأ إلى العرب ودان بالإسلام بين ظهرانيهم[٤].

أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل

---

(١) Alvari Cordubensis Epist xix. إنني أسلم نفسي إلى قانون المولى، في شوق ولهفة، لأني أستحق العقاب الأبدي.
(Migne: Patr. Lat.. tom.cxxi. O.512)

(٢) helferich, PP. 79-80..

(٣) إذا فكر المرء إلى أي حد بلغ صدى فكرة النبوة المأخوذة من العهد القديم (من التوراة) في نصرانية القبائل الجرمانية الآرية، بل إذا فكر المرء في بقاء هذه الفكرة عند القوط المغربيين بعد أن اعتقدوا المذهب الكاثوليكي – إذا فكر المرء في ذلك اتضح له كيف ظهرت بعد قدوم العرب، عند الشعوب المسيحية المفتوحة، تصورات قريبة من الإسلام...(Helfferich, p.82).

(٤) Lucae diaconi Tudensis Chronicon Mundi (Andreas Schottus: Hispaniae Illustratae, tom, iv. P. 53). (Francofurti, (1603- 8).

الاضطهاد، في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئًا، وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد. وإن الشكوى الوحيدة التي شكا منها المسيحيون هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحيين؛ ذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الرءوس المعتادة وهي ثمانية وأربعون درهما عن الأغنياء، وأربعة وعشرون عن أهل الطبقة الوسطى، واثنا عشر درهما عن العمل، لإعفائهم من الخدمة العسكرية[١]. على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال، على حين أعفي منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقاء، هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خف وطأتها على الناس[٢].

على أنه في الأحوال التي كان يعتدي فيها المسيحيون على الدين الإسلامي، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقا للقوانين المعمول بها في بلادهم[٣]، ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية[٤]. ولا غرو فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية، وكذا ترميم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح، ويظهر أنهم

---

(١) Dozy (2) tom ii. P. 41 Whishawy. P.17.

(٢) dozy (2), tom ii. P.39.

(٣) Baudissin, PP. 11-13, 196.

(٤) Eulogius: Mem Sanct, lib. i.30 id, ib lib. i. 18. نعيش بينهم بغض الدين

لم ترغمهم قوة من قوى الحكام إلى إنكار دينهم ولم تبعدهم عن عبادة الدين المقدس الموفر (P. 751)

ويقول John of Gorz (الذي زار إسبانيا حول منتصف القرن العاشر) 124 ويستخدم المسيحيون الذين كانوا إبان حكمة الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية.. وبذلك وصف أسقف إسباني حالة المسيحيين وصفا بعث به إلى جون أوف كورتز فقال «لقد وصلنا إلى هذا بسبب آثامنا فخضعنا لقوة الملحدين، وعجزنا عن مقاومة الحكومة. وما لنا من عزاء في هذا الأمر إلا أن الذين يخدمون، يرحبون بمن يلقونهم، وهم مؤيدون للمسيحين تأييدا حارًا، لا يمنعوننا من استخدام قوانيننا، وهم في الوقت نفسه راضون بحياتهم الاجتماعية، ومادام ليس هنالك إبعاد عن ديانتنا، فعلينا أن نتظاهر مؤقتا بقبول السياسة القادمة علينا، فنطيعهم لأوامرهم طالما لا تقف سياستهم حجر عثرة في سبيل إيماءاتنا .122 (P.302.

لم يعاملوا معاملة إخوانهم في الدين في سورية ومصر بأن يلبسوا ملابس خاصة تميزهم عن المسلمين، فتكون مظهرا من مظاهر إذلالهم. وكان المسيحيون المدنيون، في القرن التاسع الميلادي على الأقل، يلبسون نفس ملابس العرب[١]، كما سمح لهم في وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة[٢].

كذلك نقرأ عن بناء[٣] عدة أديرة جديدة بالإضافة إلى الأديرة الكثيرة المزهرة التي أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا في أمن وطمأنينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء. وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ من الناس في وشاحهم الصوفي وفق نظامهم الكنسي؛ ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى إخفاء شارته الدينية. وفي الوقت نفسه لم تحل المناصب الدينية[٤] دون تقلد المسيحيين المناصب العالية في البلاط أو اندماجهم في سلك الرهبنة[٥] أو انتظامهم في جيش المسلمين[٦].

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة. لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى، حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كله عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجيه Beja ويظهر أنهم انضووا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي[٧]. كما أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبحوا في الحقيقة أحسن حالا من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم. وفي سنة ٨١٢م تدخل شرلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند

---

(١) Bausissin, pp. 16-17.

(٢) تكلم يولوجيوس المتوفى سنة ٩٥٨م (Mem. Sanct. Lib. Iii.c.33) عن كنائس حديثة البناء، وقد نسبت هذه الواقعة التاريخية إلى لويتبراند خطأ بناء كنيسة في قرطبة سنة ٨٩٥م (ص١١١٣).

(٣) Eulogius: Mem, Sanct., lib.iii.c. II (P.812).

(٤) Bausissin, p.16.

(٥) Id, P.21 and John of Groz, 128 (P.306).

(٦) Whishaw, PP. 272, 301.

(٧) Dozy (2) tome ii.p.42.

ارتداده عن إسبانيا من عشت موظفي الإمبراطورية واضطهادهم إياهم. وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقى بدا من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال المنفيين الذين لم يلبثوا أن لجئوا برغم هذا إلى الشكوى ثانية من الإشراف الذين اغتصبوا أراضيهم التي خصصت لهم، ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوئ حتى عمت الشكوى من جديد؛ ولم تجد هذه المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين التاعسين، وسوف نصادف في العصور المتأخرة في الجالية الإسبانية Cagots التي فرت من الحكم الإسلامي طبقة منسحقة عوملت معاملة سيئة ووضعت نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين[١].

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية رعاياها المسيحيين في إسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم[٢]، حتى إن إزيدور أحد سكان مدينة بيجه Isidore of Beja الذي شدد النكير على الفاتحين المسلمين، قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى (بن نصير) من أرملة الملك لذريق، دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها العمل[٣]. هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم[٤]، وساروا وفق رسوم الوثنيين «غير المعتمدين» (يعني المسلمين) في أمور الطعام والشراب[٥].

---

(١) Baudissin, PP. 96-7.

(٢) انظر كتاب البابا أدريان الأول إلى الأساقفة الإسبان حيث يقول فيه: «أضف إلى ذلك أن هناك عبارات مختلفة، سمعناها من تلك الأماكن، تقول إن كثيرين ممن يطلقون على أنفسهم كاثوليك، ويعيشون في ألفة مع اليهود والكفرة من غير المنتصرين، يؤكدون أنهم ليسوا مدققين مطلقا في الطعام أو الشراب أو الذنوب المختلفة أو فيما هو محرم، فليس مصرحا لأحد أن يتزوج من الكفرة، لأنهم أنفسهم سيمنحون بناتهم لهؤلاء، وبذلك يلقى بهن في أحضان الكفار. (Migne: Patr. Lat., tome xcviii, P.385).

(٣) Isidore pacensis Chronicon 42 (1266).

(٤) Alvar: Indic Lum, 35 (P.53) Johm of Gorr 123(P303).

(٥) لا تزال هناك أبيات من الشعر العربي نظمها شاعر مسيحي في القرن الحادي عشر الميلادي باقية إلى اليوم، وهي تدل على مهارة فائقة في امتلاك ناصية اللغة ووزن الشعر. (Von Schack, 11.95)

وإن إطلاق لفظ مستعربين Muzarabes على الإسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكم العرب، ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاط وهمة في هذه السبيل؛ فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية في جميع أرجاء البلاد[١]، حتى إن لغة الدين المسيحي قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئًا شيئًا. بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة[٢]. ومن العسير أن نتوقع من العلمانيين نفس الحماسة والغيرة التي كان يبديها رجال الدين في هذا النوع من الدراسة؛ ففي سنة ٨٥٤م نرى أحد كتاب الإسبان يعلن هذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول:–

«بينما نتتبع النظم التي وردت في كتابهم المقدس (يعني المسلمين) ونلتقي بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم – أو الذين يباهون بهذا الضرب من الهذر والإعجاب بمعنى أدق – لا لندحض بالحجة والبرهان تعاليمهم الفاسدة، بل لنفيد من كلامهم الذي يستولي على الأفئدة بجماله، ومن بلاغة لغتهم – غاضين النظر عن قراءة كتابهم المقدس، فلا نكون حينئذ إلا قوما يجعلون من الجيران معبودا يعبدونه (Apoc, Xiii, 18). وأنى لنا أن نجد في أيامنا هذه أي علماني مثقف قد انهمك في دراسة الكتاب المقدس، واهتم بالنظر في مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية؟ ومن ذا الذي أوتى من الحماسة والغيرة ما يثير في نفسه الرغبة في قراءة مؤلفات المبشرين بالإنجيل أو الأنبياء والمرسلين؟ وإن شبابنا المسيحيين، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان، إنما كانوا يسترعون الأنظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يعرض من الأمور، وربما عرف عنهم من حسن الأدب ودماثة الخلق، ويتشبعهم بالبلاغة العربية، نراهم يتناولون كتب الكذابين (يعني المسلمين) منهم، ويطالعونها بلهف ويناقشونها في حماسة وغيره، ويشيدون

---

(١) وقد أمدنا سمسون رئيس أحد الأديار بأمثلة من الأساليب اللاتينية الرديئة التي كتبها بعض رجال الكنيسة في هذا العصر فمثلا يقول: «لأننا كنا افتعنا البساطة المسيحية» (أي على اعتبار أن البساطة مفعول به» ولكن تصحيحه قد ورد أسوأ من الأول: قال «كما قد اقتنعنا لأجل البساطة المسيحية» (يريد اقتنعنا بالبساطة) (PP. 404, 406).

(٢) Alvar: Indic, Lum, 35(PP. 554-6).

بذكرها، ويمتدحونها بكل ضروب التنميق في اللفظ وحسن البيان، على حين أنهم لا يفقهون شيئًا من جمال الأدب الكنسي، ثم يحتقرون جداول الكنيسة التي تنساب إليها من الجنة. وأسفاه! لقد جهل المسيحيون كافة رجلا من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جليلة، وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصا لا يحصى عددهم، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلفتها اللغة العربية في عصورها الذهبية، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة – تلك القصائد التي يتجلى فيها اسمى مراتب الجمال، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم في قرض الشعر.

وفي الحق إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط، حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين[1].

وبينما كانت الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر تستولي على الأفئدة بجمالها، ويقبل الناس على دراستها في حماسة وشغف، نجد أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأدب المسيحي لم يعد في متناول أيديهم المادة التي كانت تستخدم في تعليم القوط المتبربرين، ولم يجدوا – إلا في شيء من الصعوبة – المعلمين الذين يستطيعون أن يبدءوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيرًا حتى عن المستوى المنحط من الثقافة، وهذه الحاجة الماسة للدراسات المسيحية قد زادت على مر الأيام، ففي سنة ١١٢٥م كتب المستعربون في إسبانيا إلى ألفونس ملك أرغونة: «لقد نشأنا نحن وآباؤنا إلى وقتنا هذال وتربينا بين الأجانب، وإننا نرعى الرسوم المسيحية في حرية بعد أن تعمدنا في طفولتنا؛ بيد أننا لم نكن قط بحيث نستطيع أن نلم بتعاليم ديننا المقدسة، فإننا لا نجرؤ بسبب وجودنا تحت حكم الكفار الذين ظلمونا دهرا طويلا، على طلب المعلمين من رومة أو من فرنسا، فإنهم لم يفدوا إلينا قط من تلقاء أنفسهم بسبب وحشية الوثنيين الذين ندين لهم

(١) Von Shack, vol, ii, p.96.

بالطاعة»[١].

ومن ذلك الاتصال الوثيق بالمسلمين، ودراسة آدابهم دراسة عميقة – حيث نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar[٢] الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به – كان طبعيا أن نتوقع وجود أدلة على مد النفوذ الديني: كذلك كانت الحال بلا مراء، ويقال إن البندس Elipandus أسقف طليطلة (المتوفى سنة ٨١٠م)، وأحد أئمة المذهب الإلحادي القائل بالتبنين – الذي ذهب إلى القول بأن عيسى المسيح الرجل ابن الله بالتبني لا بالطبيعة – قد انتهى إلى هذه الآراء المغرقة في الإلحاد عن طريق اتصاله بالمسلمين[٣].

ويظهر أن هذه العقيدة الجديدة قد ذاعت بسرعة في جزء كبير من إسبانيا، بينما نشر فيلكس أسقف أرجيل Urgel إحدى مدن إقليم قطلونية هذه الآراء في إقليم سبتمانيا الذي كان تحت حماية فرنسا[٤].وقد استدعي فيلكس أمام مجمع برياسة شرلمان، وأرغم على التفكير عن خطئه؛ ولكنه عاد إلى إلحاده على أثر عودته إلى إسبانيا. وليس من شك في أن ذلك كان راجعا (كما ظن البابا ليو الثالث LeoIII في ذلك الوقت) إلى إتصاله بالوثنيين (يعني ذلك المسلمين) الذين دانوا بنفس هذه الآراء)[٥].

لما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثرًا عميقا من جراء اتصالهم بالمسلمين، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحيي أوروبا كان عظيما، وليس أدل على صحة هذا

---

(١) Oreric, Vitalis, P.928.

(٢) واليوم نقرأ في كتبهم بأعيننا .Alvar: Ind. Lum29 وقد نستحسن تركيب العبارات والصلوات التي يصلي بها أنصار (هذا الدين) جميعا والتي تصاغ كل يوم من أجله في مهارة فائقة وفصاحة عذبة. (Migne: Patr. Lat. Tome cxxi p.546).

(٣) Enheuber, 26, P353.

(٤) Helfferich, P.88.

(٥) بعد قليل، نقض قانون الرب وفر إلى الكفار الذين اتفقوا معه، وأصبح بذلك حانثا لعهده.
Frobenii dissertation de haeresi et felicis xxiv (Migne: part. Lat, tome ci, P.313).

القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦م، للبحث في أحسن الوسائل التي تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحي ونقائه[١].

عن ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير في الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية – بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين[٢] – قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام، حتى إن ذريتهم الذين أطلق عليهم اسم المولدين – ذلك اللفظ الذي يدل على الأشخاص لم يكونوا من دم عربي – سرعان ما ألفوا جماعة كبيرة لها أهميتها وخطرها في الدولة، وأصبحت بلا شك أغلبية سكان البلاد[٣]، حتى أننا نقرأ كثيرًا عن الجهود التي بذلها هؤلاء الإسبان في مستهل القرن التاسع للتخلص من حكم العرب، ثم تنشط حركتهم وتتقدم بخطى مسرعة في مناسبات كثيرة، ويظهرون باسم جماعة الحزب الوطني للإسبان المسلمين.

وليس لدينا إلا اليسير من المعلومات المفصلة من تاريخ تحول هؤلاء الإسبان الحديثي العهد بالإسلام. ويظهر أن ذلك التحول استمر إلى أواخر أيام الحكم الإسلامي؛ فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين ارتدوا إلى الإسلام وجدوا في مدينة ملقة التي استولى عليها جيش فرديننـد وإيزابيلا في سنة ١٤٨٧م، وأنهم قد عذبوا عذابا أفضى بهم إلى الموت، وذلك بوضع الغاب الحاد المدبب في أجسادهم.

وفي الحصار الذي انتهى بتسليم مدينة Purchena بعد ذلك بسنتين، وعد الفاتحون

---

(١) Pseudo- Luitprandi Chronicon, 341 (P.1115) دعا سيليوس مجلس طليطلة واشترط واسطته ألا يعاقب المسيحيون باختلاطهم مع المسلمين».

(٢) ليس هناك غير نصوص قليلة توضح مثل هذه العوامل والجهود، بيد أن الإشارة إلى هذه العوامل والجهود تظهر في عبارات يولوجيوس هذه (Libebr Apologeticus Martteum) عن محمد: وفي الحق سيظفر الذين يرغبون من الكاثوليك في معرفة جنون هذا الاثم، وهذيان هذا التبشير، وأوهام البدعة غير المقدسة، بفكرة أوضح، من أصحاب هذه الطائفة، حين يدرسونهم، فإنهم يعتقدون أنهم على شيء مقدس، ويؤمنون به ويبشرون بعقيدة نبيهم، لا في السر فحسب، بل في الأحاديث العامة كذلك» (Migne: Patr. Lat, tome cxv. P.862).

(٣) Dozy (2) tome ii. P.53.

بألا يحملوا هؤلاء المرتدين على التحول إلى المسيحية ثانية[١]. على أن عددا قليلا من الأهلين قد ارتد عن الإسلام ليتخلص من الغرامة التي قضت المحاكم الشرعية عليه بأدائها[٢]. وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغا عظيما، حتى سحرهم بهذه المدينة الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم..

كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لإظهار بأسهم، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم، تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الإسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها، أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها، باعثا على الدخول في دينهم. هذا إلى أن الإسلام في إسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة إخوان الصفا، وعلى رأسهم علماء الكلام عند أهل السنة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في أمور الدولة وقتا ما، والذين دأبوا في حمية وغيرة على إصلاح مذهبهم وتقويم أخلاقهم.

وإذا نظرنا إلى ذلك الشعور الديني الذي أحيا أكثرية الإسبان المسلمين، وذلك التحدي والحقد الذي غلا في صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم في الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم، لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعدًا تاما عن الاضطهاد الديني. وإذا استثنينا ثلاثا أو أربعا من حالات الاستشهاد الحقيقي، فإن الشيء الذي قد نطلق عليه اضطهادا أو ما يقرب من الاضطهاد مدة الحكم العربي. إنما نجده في هذه الإجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة الإسلامية للقضاء على الجنون الذي استولى على عقول بعضهم، فدفع

---

(١) Lea, The Moriscos, pp.17 .18.

(٢) Samson P .379.

بهم إلى التطوع للاستشهاد الذي فشا بقرطبة في القرن التاسع، ففي ذلك الوقت ظهرت في هذا الجزء من إسبانيا (والواضح أن الكنيسة المسيحية في سائر أنحاء البلاد لم تعطف على هذه الحركة)، جماعات دينية اشتهرت بتعصبها للمسيحية، وانتهكت حرمة ديانة المسلمين جهرا وبغير ما سبب، ورمت نبيهم بالكفر، وأصرت على تحدي هذه الديانة. وعرضوا أنفسهم للقتل على أيدي مواطنيهم الذين ضلوا السبيل ومرقوا عن الدين بتحولهم إلى الإسلام وتعصبهم له.

وإن هذا الانفعال النفساني الغريب الذي دفع بهذه الطائفة إلى التضحية، ليظهر ظهورا بينا لدى جماعة القسيسيين والرهبان والراهبات بين سنتي ٨٥٠ و٨٦٠م. وقد يبدو أن عادة إطالة التفكير والتأمل بحكم وجودهم في الأديار وعزلتهم في الصوامع، فيما آل إليه نفوذ المسيحية من ضعف وما بلغته الحمية الدينية من وهن وانحلال، قد دفع بهم إلى السعي وراء شرف الاستشهاد – الذي سلبهم إياه تسامح حكامهم الكفار – بمناوأة الإسلام والغض من شأنه وشأن نبيه. ومن الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه تلك الحادثة التي دونت عن أحد الرهبان ويدعى إسحاق، فقد تقدم إلى القاضي، وادعى أنه يريد أن يتعلم أصول الإسلام، ولما شرح له القاضي تعاليم للنبي بادره بقوله في عنف وشدة: «لقد كذب عليكم (لعنه الله!) ذلك الشرير الذي ملأ الخبث قلبه، وقاد كثيرين من الناس إلى التهلكة وقضى عليهم بالتردي في نار جهنم يوم الدين، وقدم إليكم كأسا من النبيذ البارد ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية التي احترفها فملكت عليه مشاعره. وسوف يكفر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية، ولم لم تخلصون في نفوسكم من أمثال هذه المخاطرة بفضل ما وهبكم الله من مزية الفهم والإدراك؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصمة التي تشوب عقائدكم الوبائية بالرجوع إلى إنجيل دين المسيح؟[١]».

وفي مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذا يغضان من شأن

(١) Eulogius: Mem. Sanct. Pref. 2 (Migne, tomecxv.p.737).

الدين الإسلامي. وأعلنا على ملأ الحاضرين أن هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم[١]. ومع أن عدد هؤلاء المتعصبين للدين المسيحي لم يكن كبيرا[٢]، خشيت الحكومة الإسلامية سوء عاقبة هذه الحوادث وأوجست خيفة من أن احتقارهم سلطانهم وعدم اكتراثهم لهذه القوانين التي سنوها ضد من يطعن في دينهم قد يؤدي إلى استفحال روح الكراهية وذيوع حركة العصيان بين الأهلين، إذ أن محمدًا الأول لم يجد في الواقع بدا من أن يرسل في ٨٥٣م جيشا إلى مسيحيي طليطلة الذين استفزهم يولوجيوس Eulogius، الذي نصب نفسه للدفاع عن الشهداء، وأشعل نار الثورة حين وصلت إلى سمعه أنباء هذه الآلام التي كان يقاسيها إخوانهم في الدين[٣]. وقد قيل أنه أمر بذبح جميع النصارى، على أن الناس لما أدركوا أنه لم يشترك في هذه الأعمال أي شخص من المسيحيين الذين يمتازون بشيء من الذكاء أو السلطان[٤]. (إذ أن ألفار Alvars نفسه يشكو من أن أغلبية القسيسين المسيحيين قد دانوا الشهداء وحكموا عليهم بالخطيئة[٥])، اكتفى الأمير بتنفيذ القوانين المعمول بها نحو من يطعن في الدين الإسلامي بمنتهى الصرامة، وقد أيدت طائفة الكنيسة التي عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود في هذه السبيل، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين وحرموهم الحقوق الكنيسة،

---

(١) المصدر نفسه .c.xiii. (p.794)

(٢) يقال أن عدد الشهداء لم يتجاوز الأربعين

(W. H. Prescott: History of the Region of Ferdinand and Isabella, voi, i. P342, n). (London, 1846).

(٣) Dozy (2), tome ii, pp. 161-2.

(٤) Eulogius: Mem, Sanct t, iii, c, vii, (P.805).

وإن الحقيقة السافرة القائلة بأنه ليس هناك بين المسيحيين رجل مهذب، ولا قائد من قوادهم قد أبلى عملا من هذا القبيل، قد جعلتهم يؤكدون وجوب القضاء المبرم على الذين لم يسبقهم القائد بنقمه إلى القتال

(٥) يقول ألفار .(Alvar: Ind, Lum 14) «ألم يحضر حتى أولئك الذين يظهرون أنهم دعائم الكنيسة الذين كان يعتقد أنهم انتخبوا بدون إكراه أو سخط بين يدي القاضي وقدموا شكوهم ضد شهود الخير في ساينيكس Cynicus، بل أيضًا ضد شهود أبيقور؟ ألم ينتبه رعاة المسيح ومعلمو الكنيسة الأساقفة ورؤساء الأديرة، والقسس من الشيوخ والرؤساء فيعرفوا أنهم كانوا هراطقة؟ ألم يعلنوا معترفين، دون أن يسألوا، ويستجوبوا من تلقاء أنفسهم، ويحكموا على أساس حكم الشخصي، ما لا يحق لهم أن يقولوا ولو أنذروا بالموت؟.

. (Migne: tome cxxi. P.529)

وعقد في سنة ٨٥٣م مجمع ديني لبحث وسائل القمع التي اتفق عليها الفريقان[١]. وانتهت بالقضاء على هذه الحركة. وقد دون المؤرخون بعد ذلك حادثة أو حادثتين منفصلتين من حوادث الاستشهاد، وقعت ثانيتهما في سنة ٩٨٣م، ولم تقع بعدها أية حادثة مدة الحكم العربي في إسبانيا[٢].

ولكن في عهد دولة المرابطين التي تولت حكم بلاد الأندلس، انفجر بركان التعصب الديني في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامي، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب، ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الديني الذي اتسم بذلك الطابع الذي عرف به أمراء المسلمين في إسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين، ذلك أن أحد مسلمي إسبانيا الذي طرده من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠م، بينما نراه يحتج على اضطهادات محاكم التفتيش، يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الديني الذي سار عليه إخوانه في الدين في هذه الكلمات: «هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من إسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينية في نفس الوقت الذي لبسوا فيه طيالسهم؟ ألم يوص نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأي دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقدارا معتدلا من الجزية في كل سنة؟ وإذا كانت ثمة أمثلة قد يأتي بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهلين على اعتناق الإسلام، فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة

---

(١) Alvar: Indic, Lum, P.15. أي عذر يمكن أن ننتحله لهؤلاء الذين نتركهم فريسة الحرمان الكنسي، والذين اغتصبنا من أفواههم إيمانا بأنهم لن يخرجوا أبدا على دينهم؟ أولئك الذين منعناهم أن يطعنوا في آثام الكفار أو يلعنوا الملعونين؟ إننا نضطرهم بسوء نية، أن يقسموا على الإنجيل والصليب بالقوة والإكراه، بل نضطرهم بقسوة وهلع مرير، مهددين إياهم بعقوبات لم يسمع عنها، وبألوان من العذاب كقطع الأطراف وضرب السياط وغير ذلك مما يستولي علينا الفزع حين نقوله أو نسمعه.(Migne: tome cxxi, P 530)

(٢) Baudissin, P.199.

بحيث لا تستحق أن تذكر هنا، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه، بل قاموا بهذا العمل من تلقاء أنفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الإسلامي وسنة نبيه، تلك التعاليم التي لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقي، وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئًا ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة، بسبب الطرق المختلفة التي اتبعت إلى إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما، محاكم التفتيش الممقوتة، وإن يدنا مبسوطة دائما لتلقي كل من وهب الله له نعمة التدين بديننا؛ ولكن كتابنا المقدس وهو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم في ضمائر الناس، وإن الذين استجابوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة؛ حتى إذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالة نبيه، صاروا كواحد منا من غير تمييز أو استثناء، فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التي يكون أصحابها محلا للثقة، ويحاطون بمظاهر الشف وينعمون بالثراء، وكان أقصى ما رضينا لأنفسنا من هؤلاء، أن طلبنا إليهم في رقة ولطف أن يلبسوا لباسنا، وأن يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين في كل ما يظهرون به أمام الناس، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يغضوا من شأن ديننا أو يدنسوه، فإذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراء، إذا كان تحولهم إلى هذا الدين عن طواعية واختيار لا عن إرغام وإكراه [١].

وقد اتخذ رئيس أساقفة بلنسية من روح التسامح الحقيقية هذه، مقالاً رئيسًا بعنوان: «ارتداد العرب في الأندلس وخيانتهم للدولة»، وذلك حين أشار على فيليب الثاني بطردهم فقال: «إنهم لم يذكروا بالجميل والحمد شيئًا أكثر من حرية الضمير هذه في كافة المسائل الدينية، تلك الحرية التي سمح الأتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها»[٢].

وإن هذه البذور العميقة التي ألقى بها الإسلام في قلوب أهالي بلاد الأندلس، يمكن

---

(١) Morgan vol, ii. Pp.297-8.346

(٢) Id.P .310.

الحكم على مدى عمقها من هذه الحقيقة، وهي أنه لما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠م، كان هؤلاء الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن، ومع توالي هذه الهجرات التي حدثت منذ سقوط غرناطة، حتى قيل إنه طرد في ذلك الوقت أكثر من خمسمائة ألف[١]. ومن ثم هجرت مدن وقرت برمتها، تخربت بيوتها وأصبحت بالية حتى لم يعد فيها شخص واحد يقوم ببنائها من جديد[٢]. وربما كان هؤلاء المسلمون المتخلفون في إسبانيا جميعا من سلالة أهالي البلاد الأصليين، الذين لم يكن بينهم وبين العرب امتزاج ما في الدم، بل ربما كان هذا الامتزاج قليلا، وإن الأدلة التي قد نوردها على سبيل التدليل لدعم هذه الحقيقة من الكثرة بحيث لا نستطيع أن نأتي بها على سبيل الحصر في هذا المقام. ولنذكر الآن إحدى هذه الحقائق لتكون شاهدا على صحة ما نقول، مستمدين ذلك من كتاب يرجع تاريخه إلى سنة ١٣١١م. وقد جاء فيه أنه لم يكن من بين المائتي ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون في مدينة غرناطة في ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربي. على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالي بلاد الأندلس الأصليين الذين تحولوا إلى الإسلام[٣]. وأخيرا فمن المهم أن نذكر أنه حتى أواخر ذلك الوقت الذي احتفظ فيه الإسلام بقوته ونفوذه. نرى هذا الدين يظفر بمتتبعين جدد. ولا غرو فإن المؤرخ حين يدون الحوادث التي وقعت في سنة ١٤٩٩م. أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين، يوجه أذهاننا إلى هذه الحقيقة، وهي أنه كان من بين العرب في إسبانيا عدد قليل من المسيحيين الذين اعتنقوا دين النبي في عصر متأخر[٤].

---

(١) Lea, The Moriscos, P.259.

(٢) Morgan, vol. ii. P.337.

(٣) Id. P. 289.

(٤) Sterling- Maxwell, vol, I, p.115.